الباب الثاني عشر

في الأسباب التي تعين على الصبر

لما كان الصبر مأموراً به جعل الله سبحانه له أسباباً تعين عليه وتوصّل إليه وكذلك ما أمر الله سبحانه بالأمر إلا أعان عليه، ونصب له أسباباً تمدّه وتعين عليه كما أنه ما قدّر داءً إلا وقدر له دواء أو ضمن الشفاء باستعماله؛ فالصبر وإن كان شاقاً كريهاً على النفوس فتحصيله ممكن وهو يتركب من مفردين العلم والعمل فمنهما تركب جميع الأدوية التي تداوى بها القلوب والأبدان فلا بد من جزء علمي وجزء عملي فمنهما يركب هذا الدواء الذي هو أنفع الأدوية.

فأما الجزء العلمي فهو إدراك ما في المأمور من الخير والنفع واللذة والكمال وإدراك ما في المحظور من الشر والضر والنقص، فإذا أدرك هذين العلمين كما ينبغي أضاف إليهما العزيمة الصادقة والهمة العالية والنخوة والمروءة الانسانية. وضم هذا الجزء إلى هذا الجزء فمتى فعل ذلك حصل له الصبر وهانت عليه مشاقه وحلت له مرارته وانقلب ألمه لذة وقد تقدم أن الصبر مصارعة باعث العقل والدين لباعث الهوى والنفس وكل متصارعين أرادا أن يتغلب أحدهما على الآخر. فالطريق فيه تقوية من أراد أن تكون الغلبة له ويضعف الآخر كالحال مع القوة والمرض سواء، فإذا قوي باعث شهوة الوقاع المحرم وغلب بحيث لا يملك معها فرجه، أو يملكه ولكن لا يملك طرفه أو يملكه، ولكن لا يملك قلبه بل لا يزال يحدثه بما هناك ويعده ويمنيه ويصرفه عن حقائق الذكر والتفكير فيما ينفعه في دنياه وآخرته فإذا عزم التداوي ومقاومة هذا الداء فليضعفه أولاً بأمور:

أحدها: أن ينظر إلى مادة قوة الشهوة فيجدها من الأغذية المحركة للشهوة اما بنوعها أو بكميتها وكثرتها ليحسم هذه المادة بتقليلها فإن لم تنحسم فليبادر

إلى الصوم فإنه يضعف مجاري الشهوة ويكسر حدتها ولا سيما إذا كان أكله وقت الفطر معتدلاً.

الثاني: أن يتجنب محرك الطلب وهو النظر فليقصر لجام طرفه ما أمكنه فإن داعي الارادة والشهوة إنما يهيج بالنظر والنظر يحرك القلب بالشهوة.

وفي «**المسند**» عنه ﷺ: «**النظر سهم مسموم من سهام إبليس**». وهذا السهم يشرده ابليس نحو القلب ولا يصادف جُنَّة دونه وليست الجُنَّة إلا غض الطرف أو التحيز والانحراف عن جهة الرمي، فإنه إنما يرمي هذا السهم عن قوس الصور، فإذا لم تقف على طريقها أخطأ السهم وإن نصبت قلبك غرضاً فيوشك أن يقتله سهم من تلك السهام المسمومة.

الثالث: تسلية النفس بالمباح المعوض عن الحرام، فإن كل ما يشتهيه الطبع ففيما أباحه الله سبحانه غنية عنه وهذا هو الدواء النافع في حق أكثر الناس كما أرشد اليه النبي ﷺ فالدواء الأول يشبه قطع العلف عن الدابة الجموح، وعن الكلب الضاري لإضعاف قوتهما والدواء الثاني يشبه تغييب اللحم عن الكلب والشعير عن البهيمة لئلا تتحرك قوتهما له عند المشاهدة والدواء الثالث يشبه اعطائهما من الغذاء ما يميل إليه طبعهما بحسب الحاجة لتبقى معه القوة مطيع صاحبهما، ولا تغلب بإعطائها الزيادة على ذلك.

الرابع: التفكّر في المفاسد الدنيوية المتوقعة من قضاء هذا الوطر، فإنه لو لم يكن جنة ولا نار لكان في المفاسد الدنيوية ما ينهى عن إجابة هذا الداعي ولو تكلفنا عدها لفاقت الحصر ولكن عين الهوى عمياء.

الخامس: الفكرة في مقابح الصورة التي تدعوه نفسه إليها ان كانت معروفة بالاجابة له ولغيره فيعز نفسه أن يشرب من حوض ترده الكلاب والذئاب، كما قيل:

سَأترُكُ وصْلَكم شَرفاً وعِزّاً ... لِخسّةِ سائرِ الشركاءِ فيهِ

وقال آخر:

إذا كثرَ الذبابُ عَلى الطعامِ ... رفعْتُ يدي ونفسي تشتهيهِ

وتجتنبُ الأسودُ ورود ماءٍ ... إذا كانَ الكلاب يلغْنَ فيهِ

وليذكر مخالطة ريقه لريق كل خبيث ريقه الداء الدوي، فإن ريق الفاسق داء، كما قيل:

تسلَّ يا قلبُ عمن سمح بمهجته ... مبذل كل من يلقاه يقرفه
كالماءِ أي صيد يأتيه ينهله ... والغصن أي نسيم من يعطفه
وإنْ حَلا ريق فاذكر مرارته ... في فم أبخر يحفيه ويرشفه

ومن له أدنى مروءة ونخوة يأنف لنفسه من مواصلة من هذا شأنه فإن لم تجبه نفسه إلى الإعراض ورضي بالمشاركة، فلينظر إلى ما وراء هذا اللون والجمال الظاهر من القبائح الباطنة فإن من مكن نفسه من فعل القبائح فنفسه أقبح من نفوس البهائم فإنه لا يرضى لنفسه بذلك حيوان من الحيوانات أصلا إلا ما يحكى عن الخنزير وأنه ليس في البهائم لوطيّ سواه فقد رضي هذا الممكن من نفسه أن يكون بمنزلة الخنزير، وهذا القبح يغطي كل جمال وملاحة في الوجه والبدن غير أن «حبّك الشيء يعمي ويَصمّ» وإن كانت الصورة أنثى فقد خانت الله ورسوله وأهلها وبعلها ونفسها وأورثت ذلك لمن بعدها من ذريتها فلها نصيب من وزرهم وعارهم ولا نسبة لجمال صورتها إلى هذا القبح البتة. وإذا أردت معرفة ذلك فانظر إلى القبح الذي يعلو وجه أحدهما في كبره وكيف يقلب الله سبحانه وتعالى المحاسن مقابح حتى تعلو الوحشة والقبح وجهه كما قيل شعراً:

لو فكَّر العاشقُ في منتهَى ... حُسْنِ الذي يسبيهِ لم يَسْبِهِ!

وتفصيل هذه الوجوه يطول جدا فيكفي ذكر أصولها.

فصل

وأما تقوية باعث الدين فإنه يكون بأمور:

أحدها: إجلال الله تبارك وتعالى أن يُعصى وهو يرى ويسمع ومن تقام بقلبه مشهد إجلاله لم يطاوعه قلبه لذلك البتة.

الثاني: مشهد محبته سبحانه فيترك معصيته محبة له فإن المحب أن يحب

مطيع وأفضل الترك ترك المحبين كما أن فضل الطاعة طاعة المحبين، فبين ترك المحب وطاعته وترك من يخاف العذاب وطاعته بون بعيد.

الثالث: مشهد النعمة والإحسان فإن الكريم لا يقابل بالإساءة من أحسن إليه وإنما يفعل هذا لئام الناس فليمنعه مشهد إحسان الله تعالى ونعمته عن معصيته حياء منه أن يكون خير الله وإنعامه نازلاً إليه، ومخالفاته ومعاصيه وقبائحه صاعدة إلى ربه فملك ينزل بهذا وملك يعرج بذاك فأقبح بها من مقابلة.

الرابع: مشهد الغضب والانتقام، فإن الرب تعالى، إذا تمادى العبد في معصيته غضب، وإذا غضب لم يقم لغضبه شيء فضلاً عن هذا العبد الضعيف.

الخامس: مشهد الفوات وهو ما يفوته بالمعصية من خير الدنيا والآخرة وما يحدث له بها من كل اسم مذموم عقلاً وشرعاً وعرفاً ويزول عنه من الأسماء الممدوحة شرعاً وعقلاً وعرفاً ويكفي في هذا المشهد مشهد فوات الإيمان الذي أدنى مثقال ذرة منه خير من الدنيا وما فيها أضعافاً مضاعفة، فكيف أن يبيعه بشهوة تذهب لذاتها وتبقى تبعتها، تذهب الشهوة وتبقى الشقوة.

وقد صح عن النبي ﷺ أنه قال: **«لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن»**. قال بعض الصحابة: ينزع منه الإيمان حتى يبقى على رأسه مثل الظلة، فإن تاب رجع إليه وقال بعض التابعين ينزع عنه الإيمان كما ينزع القميص، فإن تاب لبسه ولهذا روي عن النبي ﷺ في الحديث الذى رواه البخاري: الزناة في التنور عراة لأنهم تعروا من لباس الإيمان وعاد تنور الشهوة الذي كان في قلوبهم تنوراً ظاهراً يحمى عليه في النار.

السادس: مشهد القهر والظفر، فإن قهر الشهوة والظفر بالشيطان له حلاوة ومسرة وفرحة عند من ذاق ذلك أعظم من الظفر بعدوه من الآدميين وأحلى موقعاً وأتم فرحة وأما عاقبته فأحمد عاقبة وهو كعاقبة شرب الدواء النافع الذي أزال داء الجسد وأعاده إلى صحته واعتداله.

السابع: مشهد العوض وهو ما وعد الله سبحانه من تعويض من ترك المحارم لأجله ونهى نفسه عن هواها وليوازنه بين العوض، والمعوض فأيهما كان أولى بالإيثار اختاره وارتضاه لنفسه.

الثامن: مشهد المعية وهو نوعان: معية عامة ومعية خاصة فالعامة اطلاع الرب عليه وكونه بعينه لا تخفى عليه حاله وقد تقدم هذا والمقصود هنا المعية الخاصة كقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ (البقرة: ١٥٣). وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ (النحل: ١٢٨) وقوله: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ (العنكبوت: ٦٩). فهذه المعية الخاصة خير وأنفع في دنياه وآخرته ممن قضى وطره ونيل شهوته على التمام من أول عمره إلى آخرته فكيف يؤثر عليها لذة منغصة منكدة في مدة يسيرة من العمر إنما هي كأحلام نائم أو كظل زائل.

التاسع: مشهد المغافصة والمعالجة وهو أن يخاف أن يغافصه الأجل فيأخذه الله على غرة فيحال بينه وبين ما يشتهي من لذات الآخرة فيالها من حسرة ما أمرها وما أصعبها لكن ما يعرفها الا من جربها وفي بعض الكتب القديمة: يا من لا يأمن على نفسه طرفة عين ولا يتم له سرور يوم الحذر الحذر.

العاشر: مشهد البلاء والعافية فإن البلاء في الحقيقة ليس إلا الذنوب وعواقبها والعافية المطلقة هي الطاعات وعواقبها، فأهل البلاء هم أهل المعصية وإن عوفيت أبدانهم وأهل العافية هم أهل الطاعة وإن مرضت أبدانهم، وقال بعض أهل العلم في الأثر المروي: إذا رأيتم أهل البلاء، فاسألوا الله العافية فإن أهل البلاء المبتلون بمعاصي الله والإعراض والغفلة عنه وهذا وإن كان أعظم البلاء فاللفظ يتناول أنواع المبتلين في أبدانهم وأديانهم والله أعلم.

الحادي عشر: أن يعود باعث الدين ودواعيه مصارعة داعي الهوى ومقاومته على التدريج قليلاً قليلاً حتى يدرك لذة الظفر فتقوى حينئذ همته، فإن من ذاق لذة شيء قويت همته في تحصيله والاعتياد لممارسة الأعمال الشاقة تزيد القوى التي تصدر عنها تلك الأعمال، ولذلك تجد قوى الحمالين وأرباب الصنائع الشاقة تتزايد بخلاف البزاز والخياط ونحوهما ومن ترك المجاهدة بالكلية ضعف فيه باعث الدين وقوى فيه باعث الشهوة ومتى عود نفسه مخالفة الهوى غلبه متى أراد.

الثاني عشر: كف الباطل عن حديث النفس، وإذا مرت به الخواطر نفاها ولا يؤويها ويساكنها فإنها تصير أماني وهي رؤوس أموال المفاليس ومتى ساكن

الخواطر صارت أماني ثم تقوى فتصير هموماً ثم تقوى فتصير إرادات، ثم تقوى فتصير عزماً يقترن به المراد فدفع الخاطر الأول أسهل وأيسر من رفع أثر المقدور بعد وقوعه وترك معاودته.

الثالث عشر: قطع العلائق والأسباب التي تدعوه الى موافقة الهوى وليس المراد أن لا يكون له هوى بل المراد أن يصرف هواه إلى ما ينفعه ويستعمله في تنفيذ مراد الرب تعالى فإن ذلك يدفع عنه شر استعماله في معاصيه فإن كل شيء من الإنسان يستعمله لله فإن الله يقيه شر استعماله لنفسه وللشيطان، ومالا يستعمله لله استعمله لنفسه وهواه ولابد فالعلم إن لم يكن لله كان للنفس والهوى، والعمل إن لم يكن لله كان للرياء والنفاق والمال إن لم ينفق في طاعة الله أُنفق في طاعة الشيطان والهوى والجاه إن لم يستعمله لله استعمله صاحبه في هواه وحظوظه، والقوة إن لم يستعملها في أمر الله استعملها في معصيته فمن عود نفسه العمل لله لم يكن عليه أشق من العمل لغيره ومن عود نفسه العمل لهواه وحظه لم يكن عليه أشق من الإخلاص والعمل لله وهذا في جميع أبواب الأعمال فليس شيء أشق على المنفق لله من الإنفاق لغيره وكذا بالعكس.

الرابع عشر: صرف الفكر إلى عجائب آيات الله التي ندب عباده إلى التفكير فيها وهي آياته المتلوة وآياته المجلوة فإذا استولى ذلك على قلبه دفع عنه محاظرة الشيطان ومحادثته ووسواسه وما أعظم غبن من أمكنه أن لا يزال محاظراً للرحمن وكتابه ورسوله والصحابة فرغب عن ذلك الى محاظرة الشيطان من الإنس والجن فلا غبن بعد هذا الغبن والله المستعان.

الخامس عشر: التفكر في الدنيا وسرعة زوالها وقرب انقضائها فلا يرضى لنفسه أن يتزود منها إلى دار بقائه وخلوده أخس ما فيها، وأقله نفعاً إلا ساقط الهمة دنيء المروءة ميت القلب فإن حسرته تشتد اذا عاين حقيقة ما تزوده، وتبين له عدم نفعه له فكيف اذا كان ترك تزود ما ينفعه إلى زاد يعذب به، ويناله بسببه غاية الألم بل إذا تزود ما ينفعه وترك ما هو أنفع منه له كان ذلك حسرة عليه وغبناً.

السادس عشر: تعرضه إلى من القلوب بين إصبعيه وأزمة الأمور بيديه وانتهاء كل شيء إليه على الدوام، فلعله أن يصادف أوقات النفحات كما في الأثر المعروف: «**إن لله في أيام دهره نفحات، فتعرّضوا لنفحاته، وأسألوا الله أنْ يستر عوراتكم ويؤمن روعاتكم**». ولعله في كثرة تعرضه أن يصادف ساعة من الساعات التي لا يسئل الله فيها شيئاً إلا أعطاه فمن أعطى منشور الدعاء أعطى الإجابة فإنه لو لم يرد إجابته لما ألهمه الدعاء، كما قيل:

لو لم تُرِد نَيْلَ ما أرجو وَأَطْلُبُه ... من جودِ ما عوَّدتني الطَّلَبَا

ولا يستوحش من ظاهر الحال فإن الله سبحانه يعامل عبده معاملة من ليس كمثله شيء في أفعاله كما ليس كمثله شيء في صفاته فإنه ما حرمه إلا ليعطيه ولا أمرضه إلا ليشفيه ولا أفقره إلا ليغنيه، ولا أماته إلا ليحييه وما أخرج أبويه من الجنة إلا ليعيدهما إليها على أكمل حال كما قيل: يا آدم لا تجزع من قولي لك اخرج منها فلك خلقتها وسأعيدك إليها فالرب تعالى ينعم على عبده بابتلائه ويعطيه بحرمانه ويصحبه بسقمه فلا يستوحش عبده من حالة تسوؤه أصلاً إلا إذا كانت تغضبه عليه وتبعده منه.

السابع عشر: أنْ يعلم العبد بأن فيه جاذبين متضادين ومحنته بين الجاذبين جاذب يجذبه إلى الرفيق الأعلى من أهل عليين وجاذب يجذبه إلى أسفل سافلين فكلما انقاد مع الجاذب الأعلى صعد درجة حتى ينتهي إلى حيث يليق به من المحل الأعلى وكلما انقاد إلى الجاذب الأسفل نزل درجة حتى ينتهي إلى موضعه من سجين ومتى أراد أن يعلم هل هو مع الرفيق الأعلى أو الأسفل فلينظر أين روحه في هذا العالم فإنها اذا فارقت البدن تكون في الرفيق الأعلى الذي كانت تجذبه إليه في الدنيا فهو أولى بها، فالمرء مع من أحب طبعاً وعقلاً وجزاء وكل مهتم بشيء فهو منجذب إليه والى أهله بالطبع وكل امرىء يصبو إلى ما يناسبه وقد قال تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ (الإسراء: ٨٤) فالنفوس العلوية تنجذب بذاتها وهمها وأعمالها إلى أعلى والنفوس السافلة إلى أسفل.

الثامن عشر: أن يعلم العبد أن تفريغ المحل شرط لنزول غيث الرحمة وتنقيته من الدغل شرط لكمال الزرع فمتى لم يفرغ المحل لم يصادف غيث

الرحمة محلاً قابلاً ينزل فيه وإن فرغه حتى أصابه غيث الرحمة ولكنه لم ينقه من الدغل لم يكن الزرع زرعاً كاملاً بل ربما غلب الدغل على الزرع فكان الحكم له وهذا كالذي يصلح أرضه ويهيئها لقبول الزرع ويودع فيها البذور وينتظر نزول الغيث فإذا طهر العبد قلبه وفرغه من إرادة السوء وخواطره وبذر فيه بذر الذكر والفكر والمحبة والإخلاص وعرضه لمهاب رياح الرحمة وانتظر نزول غيث الرحمة في أوانه كان جديراً بحصول المغل، وكما يقوى الرجاء لنزول الغيث في وقته كذلك يقوى الرجاء لإصابة نفحات الرحمن جل جلاله في الأوقات الفاضلة والأحوال الشريفة ولا سيما إذا اجتمعت الهمم، وتساعدت القلوب، وعظم الجمع كجمع عرفة وجمع الاستسقاء، وجمع أهل الجمعة، فإن اجتماع الهمم والأنفاس أسباب نصبها الله تعالى مقتضية لحصول الخير ونزول الرحمة كما نصب سائر الأسباب مقتضية إلى مسبباتها بل هذه الأسباب في حصول الرحمة أقوى من الأسباب الحسية في حصول مسبباتها ولكن العبد بجهله يغلب عليه الشاهد على الغائب الحسن وبظلمه يؤثر ما يحكم به هذا ويقتضيه على ما يحكم به الآخر ويقتضيه ولو فرغ العبد المحل وهيأه وأصلحه لرأى العجائب فإن فضل الله لا يرده إلا المانع الذي في العبد فلو زال ذلك المانع لسارع إليه الفضل من كل صوب فتأمل حال نهر عظيم يسقي كل أرض يمر عليها فحصل بينه وبين بعض الأرض المعطشة المجدبة سكر وسد كثيف فصاحبها يشكو الجدب والنهر إلى جانب أرضه.

التاسع عشر: أن يعلم العبد أن الله سبحانه خلقه لبقاء لا فناء له ولعز لا ذل معه وأمن لا خوف فيه وغناء لا فقر معه ولذة لا ألم معها وكمال لا نقص فيه وامتحنه في هذه الدار بالبقاء الذي يسرع إليه الفناء، والعز الذي يقارنه الذل ويعقبه الذل والأمن الذي معه الخوف وبعده الخوف وكذلك الغناء واللذة والفرح والسرور والنعيم الذي هنا مشوب بضده لأنه يتعقبه ضده، وهو سريع الزوال فغلط أكثر الخلق في هذا المقام إذ طلبوا النعيم والبقاء والعز والملك والجاه في غير محله ففاتهم في محله وأكثرهم لم يظفر بما طلبه من ذلك والذي ظفر به إنما هو متاع قليل والزوال قريب فإنه سريع الزوال عنه.

والرسل صلوات الله وسلامه عليهم إنما جاؤوا بالدعوة إلى النعيم المقيم والملك الكبير فمن أجابهم حصل له ألذ ما في الدنيا وأطيبه فكان عيشه فيها أطيب من عيش الملوك فمن دونهم فإن الزهد في الدنيا ملك حاضر والشيطان يحسد المؤمن عليه أعظم حسد فيحرص كل الحرص على أن لا يصل إليه فإن العبد اذا ملك شهوته وغضبه فانقادا معه لداعي الدين فهو الملك حقاً لأن صاحب هذا الملك حر والملك المنقاد لشهوته وغضبه عبد شهوته وغضبه فهو مسخر مملوك في زي مالك يقوده زمام الشهوة والغضب كما يقاد البعير فالمغرور المخدوع يقع نظره على الملك الظاهر الذي صورته ملك وباطنه رق وعلى الشهوة التي أولها لذة وآخرها حسرة والبصير الموفق يعبر نظره من الأوائل إلى الأواخر ومن المبادىء إلى العواقب وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

العشرون: أن لا يغتر العبد باعتقاده أن مجرد العلم بما ذكرنا كاف في حصول المقصود بل لا بد أن يضيف إليه بذل الجهد في استعماله واستفراغ الوسع والطاقة فيه وملاك ذلك الخروج عن العوائد فإنها أعداء الكمال والفلاح، فلا أفلح من استمر مع عوائده أبداً ويستعين على الخروج عن العوايد بالهرب عن مظان الفتنة والبعد عنها ما أمكنه وقد قال النبي ﷺ: «**مَن سمع بالدجال فلينأ عنه**». فما استعين على التخلص من الشر بمثل البعد عن أسبابه ومظانه ههنا لطيفة الشيطان لا يتخلص منها إلا حاذق وهي أن يظهر له في مظان الشر بعض شيء من الخير ويدعوه إلى تحصيله فإذا قرب منه ألقاه في الشبكة والله أعلم.

□